ابتسمت «الست فاطمة» بعد أن إطمأنت إلى أن «نجيب» قد انتهى من استبدال ملابسه المنزلية بملابس «الخروج».. فها هو يرتدى «الشورت» الجديد والقميص الأبيض.. أما الجورب الطويل الذى يصل إلى ما دون الركبة فقد كان شديد النظافة.. تظهر معه العناية الفائقة بلمعة الحذاء الأسود.

لم يسأل الفتى أمه عن مقصدهما.. فهو يعرف أن والدته تصحبه فى مثل هذا اليوم من كل أسبوع لزيارة المتحف المصرى الذى يعرفه الجميع باسم «الأنتيكخانة».. وهناك سيشاهد التماثيل الضخمة لملوك مصر العظماء، كما أنه سيدخل حجرة «المومياوات» ليشاهد الرفات التى استطاع هؤلاء القدماء المحافظة عليها سليمة بفضل ما وصلوا إليه من علم وخبرة.

لم يكن «نجيب» هو الابن الوحيد لأمه «فاطمة» - مع أنه كان الوحيد مع والديه فى المنزل - فقد جاء إلى الحياة متأخراً بعد صبيين وأربع فتيات.. أما الفتيات فقد تزوجن وكذلك الأخ الأكبر، بينما كان الأخ الأوسط - الذى كان يكبر «نجيب» بعشر سنوات - دائم الغياب عن المنزل نظراً لالتحاقه بالكلية الحربية ثم سفره إلى السودان ضمن قوة الجيش المصرى هناك..

هكذا كان «نجيب» موضع الاهتمام الكامل من أمه، تصحبه دائماً معها إذا ما خرجت لزيارة المتحف، أو لزيارة آل البيت وأولياء الله الصالحين، أو لزيارة الأهل والشقيقات..

كان البيت فى حياة «نجيب» عالماً متكاملاً.. ففى الدور الأرضى توجد «غرفة المسافرين»، كما توجد صالة اجتماع الأسرة حول مائدة الطعام.. أما الدور العلوى فكان لغرف النوم.. وإذا صعد «نجيب» إلى سطح المنزل فإنه يقضى أسعد أوقاته مع البط والأوز والدجاج والأرانب.. لم تكن هذه حديقة حيوانات خاصة.. بل كانت حظائر صغيرة، تربى فيها «ست البيت» ما تحتاجه الأسرة لطعامها..

سأل الفتى «نجيب» أمه يوماً:

- من هو «محفوظ»؟.. إن أبى اسمه «عبدالعزيز» فلماذا تدعوننى «نجيب محفوظ»؟؟

ضحكت الأم من قلبها وقالت:

- أنت «نجيب محفوظ».. هذا هو اسمك.. أما والدك فهو «عبدالعزيز إبراهيم الباشا».

سأل الفتى:

ولماذا يكون لى اسمان.. نجيب ومحفوظ؟؟

قالت له أمه:

لهذه التسمية قصة..

فقد تألمت كثيرا أثناء ولادتى لك.. وانزعجت «الداية»(*) ونصحت بضرورة استدعاء طبيب.. فذهب والدك إلى أشهر طبيب توليد فى مصر واستدعاه كى يأتى لمساعدتى..

وبعون الله استطاع «د. نجيب محفوظ» أن يخرجك سالماً إلى الحياة، وأن يعفينى من المشاكل والمضاعفات.. وعرفاناً منا بدور «د. نجيب محفوظ» أطلقنا اسمه على المولود.. عليك يا «نجيب محفوظ» الصغير.. الذى أتمنى أن أراه يوماً طبيباً فى شهرة ومهارة «د. نجيب محفوظ».

فرح الفتى بهذه الحكاية وصاح:

- طبعاً.. حدث هذا فى يوم الاثنين «١١ ديسمبر ١٩١١»..

فضمته أمه إلى صدرها وقالت:

- حتى تكون طبيباً بارعاً يجب أن تتوقف عن الشقاوة.. فلا تشاكس الخادمة ولا تصعد إلى سطح البيت أثناء النهار حيث الشمس حارقة..

نظر إليها «نجيب» فى جد مفتعل وأضاف:

- ولن أفتح الشباك المواجه لقسم الجمالية أثناء معارك الفتوات، ولن أخرج للعب مع الأولاد خارج المنزل..

قالت له أمه:

- لا تتصور أننا نريد أن نسجنك فى المنزل.. لكن اللعب مع

* الداية هى المرأة التى كانت تقوم بعمليات التوليد فى المنازل قديماً.. ومازالت موجودة فى بعض القرى..

الصبية فى الشارع يعرضك للاحتكاك بمن لا يكون على خلق كريم.. كما أنه يعرضك للإصابة تحت أقدام الخيول أو العربات التى قد تمر بسرعة.

استسلم «نجيب» لما قالته أمه.. فهذا حديث مكرر لم تنجح كل المحاولات لتغيير رأى والديه حوله..

من خلف فتحات الشباك «الخرط»[1]، نظر «نجيب» إلى الميدان الذى يطل عليه منزلهم.. إنه ميدان فسيح نظيف تظلله أشجار ضخمة، تسقط منها زهور حمراء لها «شوشة» يطلقون عليها «دقن الباشا»..

نظر «نجيب» إلى حيث الحوض المستطيل الذى تظلله الأشجار.. إنه مخصص لسقاية الدواب «الحمير والبغال»، التى يُعتمد عليها فى نقل الأشخاص والأمتعة..

تنبه «نجيب» فجأة إلى هذا «الحنطور» الذى توقف أمام منزل الدكتور «عبدالعزيز»، وتأثر كثيراً عندما لمح رجلاً وامرأة يتركان الحنطور وقد حمل الرجل «طفلة» فى مثل سنه.. يبدو أن المرض قد اشتد عليها فحملها أبواها إلى د. عبدالعزيز.

وكان منزل د. عبدالعزيز منزلاً فخماً ذا بوابة حديدية كبيرة، تفضى إلى مبنى صغير يقابل فيه «الدكتور» مرضاه.. أما المنزل الذى كان يقيم فيه، فقد كان منزلاً كبيراً تفصله عن مبنى العيادة حديقة،

(١) الشباك الخرط نظام الشبابيك القديمة يعتمد على ألواح متجاورة، تتخللها فتحات ضيقة تسمح للضوء بالدخول، ولا تسمح لمن بالخارج أن يرى من بالداخل.

تملؤها أشجار الفواكه والزهور.

تمنى «نجيب» فى نفسه أن يدخل إلى حديقة منزل د. عبدالعزيز.. لكنه تذكر أن هذا ليس سهلاً فليس فى البيت صبية ولا فتيات فى مثل سنه.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

كانت النسوة يتزاحمن أمام «حنفية المياه العمومية»، تريد كل منهن أن تأخذ نصيبها وتسرع بالعودة إلى منزلها.. وأمام هذا الزحام اضطر «عم حنفى» مدير «الحنفية» أن يوقف الماء وينزع المفتاح، ويجلس على مقعده بعد أن أقسم ألا يعيد إدارة «الحنفية» وسط هذا الضجيج والهرج.

كان هذا مشهدا يوميا يراقبه الفتى «نجيب» من نافذة البيت المطلة على ميدان بيت القاضى، وهو يبتسم ويحمد الله أنهم لا يعتمدون على «الحنفية».. ففى منزلهم خزان كبير يأتى «السقا» فيملأه كلما فرغ.. ومن الخزان تمتد المواسير والصنابير إلى داخل البيت، وأكثر من هذا.. فإن فى منزلهم «سخان» يعمل بالخشب والفحم فى حجرة مجاورة للحمام، تتيح له فرصة الاستحمام بالماء الدافئ دون أن يذهب إلى الحمام العمومى[1]..

(١) كانت الحمامات العمومية منتشرة فى كثير من الأحياء القاهرة وغيرها من المدن حتى وقت قريب، وتخصص أياما للسيدات وأخرى للرجال.

مل الفتى «نجيب» وقفته أمام النافذة.. فجرى متقافزًا يصعد درجات السلم الخشبى إلى السطح حيث يستمتع بصحبة الطيور والدواجن.. وبالاختباء فى الغرفة الصيفية التى تبيت فيها الأسرة فى الليالى الحارة.

سمع «نجيب» صوت الخادمة تناديه، وتخبره أن والدته تطلب منه النزول والاستعداد لتناول الغداء، فقد اقترب موعد رجوع والده من عمله.

تململ الفتى وبدأ يهبط الدرج بطيئاً.. لكنه سمع شيئا دفعه إلى القفز والإسراع، حتى وصل إلى الدور الأرضى للبيت، حيث كانت أمه تجلس إلى جوار «الجرامافون»، تستمع إلى «الشيخ سيد درويش».

«والله تستاهل يا قلبى ما كنت خالى»

كانت «الست فاطمة» فى جلسة انسجام شديد، تحرك رأسها مع اللحن، وتدندن بصوت خافت مع الكلمات.

لم تكن هذه هى «الأسطوانة الوحيدة» فى البيت.. فقد كانت هناك أسطوانات عديدة «للشيخ سيد درويش» و«للست منيرة المهدية».. وتعلق نجيب بسماع هذه الأسطوانات.. ولم يكن سماع الموسيقى والأغانى هواية الأم وابنها نجيب فقط، بل الأب كذلك.. كان [«سميع» أغان حتى قبل ظهور الراديو، وإذا عرف أن «المنيلاوى» أو «صالح عبدالحى» أو «عبدالحى حلمى» أو غيرهم من كبار المطربين فى ذلك الوقت سوف يغنى أحدهم فى حفل زواج فى

المنطقة، فلابد أن يذهب لسماعه.. وكانت الأفراح تقام وقتها فى سرادقات مفتوحة للجميع، ويمكن لأى شخص أن يدخلها.. وأحيانا كان هناك من يذهب إلى سرادقات العزاء، دون أن يعرف اسم المتوفى إذا علموا أن المقرئ فى المآتم واحد من الكبار مثل الشيخ «على محمود» أو «الشيخ السيسى»[1].

(١) من نص حديث نجيب محفوظ إلى الكاتب رجاء النقاش فى كتابه «نجيب محفوظ»، إصدار مركز الأهرام ١٩٩٨.

الشقاوة والكُتّاب

كان البيت واسعاً وخالياً إلا من «نجيب» ووالدته والخادمة الصغيرة.. أما الأب فكان يقضى أغلب يومه فى العمل.. لهذا كانت فرصة الصغير كى ينطلق فى حرية.. صاعداً.. هابطاً مثيراً للشغب.

كان «نجيب» يطلب من والديه أن يسمحا له باللعب أمام المنزل مع الصبية.. لكنهما كانا يخشيان عليه من اللهو مع الصغار فى الطرقات.

وكان الحل الوحيد هو أن يلتحق الصغير «بالكُتّاب».. فتكون فرصة لتعلم شىء من القرآن وبعض مبادئ القراءة والكتابة، رغم أن «نجيب» لم يكن قد تجاوز الرابعة من عمره بعد..

كان «الكُتّاب» على بعد خطوات من المنزل.. وهو يشغل حجرة واسعة، تكون الدور الثانى من سبيل أثرى قديم فى رقم (٩) حارة بيت القاضى.. ويدعونها أحياناً حارة الكبابجى.

وفرح الصبى بهذا القرار.. فهذه هى فرصته للخروج واللعب مع أترابه.

فى كل صباح يحمل «نجيب» حقيبة صغيرة من القماش يضع فيها «اللوح»، ومعه نصف رغيف محشو «بالجبنة» ونصف آخر محشو «بالحلاوة الطحينية».

[على حصيرة واحدة نقعد صبياناً وبنات فى الكُتاب نتلو الآيات بصوت واحد، ولا تفرق مقرعة سيدنا الشيخ بين قدم صبى وقدم بنت، وقت الغداء يتربع كل منا مستقبلاً الجدار بوجهه، يفك الصرة ويفرش منديله كاشفاً عن الرغيف والجبن والحلاوة الطحينية].

هكذا صور «نجيب محفوظ»: «الكُتاب» فى إحدى حكايات كتابه «حكايات حارتنا».

فى الظهيرة.. يخرج الأطفال «كل فى اتجاه منزله».

ويتجه «نجيب» إلى ميدان بيت القاضى حيث منزل أسرته - منزل رقم ٨ -.. لكنه لا ينسى أن يتوقف قليلا تحت بوابة بيت القاضى ليبتاع «كراملة» من «الشابخورلى»، الذى كان يجلس فى هذا المكان يبيع للصغار الحلوى ويأخذ منهم «الملاليم».

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

كان يوما عاديا فى كل شىء.. ذهب «نجيب» إلى «الكُتاب» وحفظ سورة جديدة، ثم تناول غداءه فى موعد صلاة الظهر قبل أن يعود «العريف»[١] مرة أخرى صائحاً فى الأطفال، طالبا من كل منهم أن «يُسمِّعَ» ما حفظ.. وكانت فرحة «نجيب» كبيرة لأنه نجا اليوم من «فلقة»[٢] سيدنا.. ولم توجعه قدماه الصغيرتان لأنه أجاد الحفظ والتسميع.

(١) العريف هو الشيخ الذى يعلم الصبية فى الكتاب.

(٢) الفلقة هى العصا الرفيعة التى كان المعلم يضرب بها الأطفال فى الكتاب.

عاد نجيب إلى المنزل فألقى بحقيبته جانباً وصعد مسرعاً إلى حيث يراقب الدواجن، ويحصى عدد الأرانب الصغيرة فوق سطح البيت. وفجأة سمع هرجاً وصياحاً فى الميدان الذى يطل عليه منزلهم - ميدان بيت القاضى.. لصق الصغير وجهه فى خشب النافذة متعمداً أن تكون عيناه الفضوليتان أمام فتحات الخشب الصغيرة.

[ماذا يحدث للدنيا؟

يجتاحها طوفان، يقلقها زلزال، تشتعل بأطرافها النيران، تتفجر بحناجرها الهتافات

الميدان يكتظ بالآلاف، لم يقع ذلك من قبل، هديرهم يرج جدران حارتنا ويصم الآذان، إنهم يصرخون، وبقبضات أيديهم يهددون، وحتى النساء يركبن طوابير الكارو ويشاركن فى الجنون..

وأحملق فيما يجرى من فوق سور السطح وأتساءل عما يحدث للدنيا.. وتتلاطم الأحاديث مشحونة بكهرباء الوجدان، وينهمر سيل من الألفاظ الجديدة السحرية، سعد زغلول، مالطة، السلطان، الهلال والصليب، الوطن، الموت الزؤام.

الأعلام ترفرف فوق الدكاكين، صور سعد زغلول تلصق بالجدران، أمام المسجد يظهر فى شرفة المئذنة ويهتف ويخطب.

وأقول لنفسى: إن ما حدث غريب ولكنه مثير ومسل.. شديد البهجة.. غير أنى أشهد مطاردة.

يندفع أناس داخل حارتنا، يرمون بالطوب، يتحصنون بالأركان، يقتحم الحارة الفرسان بقبعاتهم العالية وشواربهم الغليظة، تنطلق أصوات حادة مخيفة تعقبها صرخات، أنزع من مكان المراقبة إلى

الداخل فتطالعنى وجوه مذعورة وهمسات تقول:

- إنه الموت!

نرهف السمع وراء النوافذ المغلقة، لا شيء إلا أصوات متضاربة، وقع أقدام، صهيل خيل، أزيز رصاص، صرخة موجعة، هتاف غاضب.

يتواصل ذلك دقائق فى الحارة ثم يسود الصمت ويتردد الهدير، ولكن - هذه المرة - من بعيد.. ثم يسود صمت مطبق.

وأقول لنفسى إن ما يحدث غريب ومزعج ومخيف.

وأعرف بعض الشيء معانى الألفاظ الجديدة، سعد زغلول، مالطة، السلطان، الوطن، وأعرف بوضوح أكثر الفرسان البريطانيين والرصاص والموت.

تزورنا أم عبده وهى فى غاية الانفعال، تحكى حكايات عن الضحايا والأبطال، وتنعى إلينا علْوة صبى الفران، وتؤكد أن جياد الفرسان حرنت[1] أمام التكية وألقت الفرسان عن متنها.

وأقول لنفسى: [إن ما يحدث حلم مثير لا يصدق] «**الحكاية رقم ١٢**».

هكذا أخذنا «نجيب محفوظ» معه إلى أول مظاهرة شعبية يراها.. كان صغيراً لا يعرف ما يجرى حوله تماماً.. لكن الأحداث جعلته يعرف أشياء كثيرة تسبق عمره الصغير.. فقد عرف كيف أن الإنجليز قد حكموا «بالنفى»[2] إلى مالطة على «سعد زغلول» ورفاقه من

(١) حرنت الجياد أى رفضت أن تستمر فى السير.

(٢) النفى هو الحكم على أحد الأشخاص بمغادرة وطنه والعيش فى مكان آخر بعيد.

الوطنيين.. وكيف خرجت كل فئات الشعب - التجار والطلبة وأئمة المساجد - حتى النساء - خرجن يتظاهرن أمام قسم الجمالية، احتجاجا على هذا الاعتداء المصريين وعلى حقهم فى المطالبة بحريتهم.

سمع «نجيب» فى هذه المظاهرة عبارة «الهلال والصليب» و«الموت الزؤام» وهى عبارات جديدة على أذنه.

سمع «نجيب» أصوات خيول الإنجليز وسمع طلقات الرصاص الموجهة لصدور المصريين.. وعرف الفتى فى هذه السن الصغيرة أن هناك شهداء يسقطون ثمناً للحرية.

ولم ينس «الفتى» أن يذكر لنا أن أبويه قد خشيا عليه من خطر الوقوف قريبا من النافذة، فجذباه «انتُزع من مكان المراقبة» إلى الداخل حتى لا يصيبه سوء.

ولأن هذه لم تكن المظاهرة الأخيرة التى يشهدها «ميدان بيت القاضى»، وقد أصبح منظر «عساكر الإنجليز» شيئا مألوفا أمام قسم الجمالية.. ولأن منزل الفتى «نجيب» كان يواجه قسم الجمالية فقد صدرت له تعليمات مشددة من والديه بعدم فتح النوافذ المطلة على الميدان، لأن الإنجليز قد يطلقون النار على أى شخص يقف أمام نافذة.

وينتهز الصغير فرصة غياب أبيه وانشغال أمه ويفتح النافذة ويقف ليراقب «العساكر»، بل ويحاول أن يقلد حركاتهم.. ولم تطل وقفته.

إذ يصل أبوه ليجده حيث أمره ألا يقف.

ولأول مرة.. يمسك الأب بابنه وينهال عليه ضرباً.. والغريب أن الأم ساعدته، وأمسكت بقدمى صغيرها ورفعتهما ليتمكن الأب من ضربه على باطن قدميه.

ولم يتركاه إلا وقد تورمت قدماه وأصبح عاجزاً عن المشى لعدة أيام.

سنة أولى وطنية

هكذا كانت مظاهرات ميدان «بيت القاضى» هى أول تجربة، يطل منها الفتى «نجيب» على عالم الوطنية والسياسة ومبادئ الحرية، ومن هذه التجربة ارتبط الفتى باسم رأى فيه - كما رأى فيه كل المصريين - تجسيداً لمعانى الوطنية الخالصة وهو اسم «سعد زغلول».

[ليس فى مصر من يتكلم باسمها إلا «سعد».. وإن التفاف الأمة حوله جدير فى النهاية بأن يبلغ بها مانرجو من الآمال]، (جاءت هذه العبارة على لسان «كمال» أحد أبطال الثلاثية)...

ومن نافذته الصغيرة التى أطل منها على ميدان «بيت القاضى»، أدرك «نجيب» أن قضية الحرية هى قضية كل مصرى.. العامل والموظف والتاجر والطالب.. الرجل والمرأة.. لأنها قضية وطن.

[أزهريون، طلبة، عمال، أهالى، جميع الطرقات المؤدية إلى الحسين مكتظة بالبشر، ما كنت أحسب قبل اليوم أن الأرض تستطيع أن تحمل كل هؤلاء البشر]، جاءت هذه العبارة فى رواية «بين القصرين» ٣٤٧.].

لم يكن أمام «نجيب محفوظ» فى هذه الفترة من التاريخ - من عام ١٩١٩، وهو تاريخ اندلاع الثورة الشعبية المؤيدة لسعد ورفاقه

بالمطالبة باستقلال مصر وحريتها.. وحتى عام ١٩٢٧ وهو تاريخ وفاة سعد باشا[١] - لم يكن أمام الصبى الصغير الذى ولد فى عام ١٩١١ وسيلة لمعرفة الأخبار والتطورات غير أحاديث الأسرة.

[يزور أبى جماعة من الأصدقاء ويدور الحديث عن الثورة، لا حديث هذه الأيام إلا عن الثورة، حتى حديثنا نحن الغلمان يرطن بلغة الثورة، ولعبنا فى الحارة مظاهرات وهتافات] «**الحكاية رقم ١٥**».

ويواصل «نجيب محفوظ» وصفه لجلسة أبيه مع أصدقائه.

[الفلاحون والعمال والطلبة والموظفون والنساء يُقتلون ويَقْتِلون].

- الفلاح يحمل السلاح ويتحدى الإمبراطورية.

- انقطعت المواصلات تماما وأصبحت مصر دويلات مستقلة!

- والمذابح؟.

- مذبحة الأزهر.

- مذبحة أسيوط.

- العزيزية والبدرشين.

- الحسينية.. لا أنا ولا أنت.. ليحيى سعد.

وألمح أبى تغرورق عيناه بالدموع.

أراقبه بذهول محتقناً بانفعال صامت وفيض من الدموع ينهمر على خدى]. «**الحكاية رقم ١٥**»

---

(١) مات سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧.

ولا ينسى «نجيب» يوم أحضر والده «التوكيل الشعبى» الذى كان يوقع عليه أفراد الشعب.. فوقع عليه، ثم طلب من زوجته أن تضع بصمتها دليلا على موافقتها على أن ينوب سعد زغلول ورفاقه عنها فى المطالبة بالاستقلال.

[ما أجمل أن يكرس الإنسان حياته للحق والخير والجمال].

«قصر الشوق»

وفى روايته بين القصرين، يرسم «نجيب محفوظ» صورة جميلة وصادقة لأسرة مصرية تعيش مأساة نفى الزعيم سعد زغلول، ويصور بدقة وعمق موقف كل فرد منها.. فهذا هو موقف الأب «السيد أحمد عبدالجواد»

[أنظر إلى الطريق، أنظر إلى الناس، من يقول إن الكارثة لم تقع؟!، لكن السيد أحمد لم يكن فى حاجة إلى مزيد من النظر.. الناس يتساءلون ويرجفون، وأصحابه يخوضون فى الحديث خوضا حارا، تجاوبت فيه الحسرة مع الحزن مع الغضب، وتردد الخبر على ألسنة كافة من مر به من الأصدقاء والزبائن.. أجمع الكل على أن سعد زغلول وصفوة أصحابه قد اعتقلوا وسيقوا إلى مكان مجهول فى القاهرة أو خارجها.

أثار النفى فى نفوسهم ما خامرهم منذ الصبا من ذكريات قديمة أسيفة عن عرابى[1] باشا ونهايته] «**بين القصرين**».

(١) هو الزعيم أحمد عرابى الذى قاد ثورة الجيش ضد الخديوى توفيق، ثم نفى إلى جزيرة جاوا حيث مات هناك.

ثم ينتقل نجيب محفوظ إلى رسم صورة داخل منزل الأسرة حيث الأم وأبناؤها.

[استقبلت الأسرة مجلسها التقليدى فى جو من الوجوم لم تعهده من قبل.. انطلق فهمى فى حديث ثورى والدموع فى عينيه، واستمع ياسين آسفا حزينا، وودت الأم أن تبدد الكآبة أو تخفف البلوى، لكنها أشفقت من انقلاب غرضها عليها، ثم ما لبثت عدوى الحزن أن انتقلت إليها، فرق قلبها للشيخ العجوز الذى انتزعوه من بيته وزوجته إلى منفى بعيد، قال ياسين:

- أمر محزن.. رجالنا جميعا، عباس[1] ومحمد فريد[2] وسعد زغلول.. مشردون بعيدا عن الوطن فقال فهمى بانفعال شديد: يا لهم من أوغاد.. هؤلاء الإنجليز..] «**بين القصرين**».

ويعود الزعيم الكبير من منفاه تحت ضغط جموع الشعب بكل فئاته.. هذا الضغط الذى اضطر الإنجليز للإفراج عنه وعن زملائه.. وكان يوم عودة سعد يوما مشهودا فى حياة مصر، وتلتقط عينا الصغير كما يلتقط عقله الحدث الكبير.. لكنه يركز على والده.. فالأب رمز كبير فى حياة الابن.. كما يركز على «الحارة».. وهى على محدوديتها عالم كبير عند هذا الطفل.. وها هو يرسم هذه المشاعر فى **الحكاية رقم «١٨»**.

[الفرحة ترقص فى القلوب، والنشوة تشتعل فى النفوس، يوم عودة سعد..

---

(١) هو الخديوى عباس الذى نفاه الإنجليز عن مصر بسبب مواقفه الوطنية.

(٢) هو الزعيم الوطنى المصرى محمد فريد زميل مصطفى كامل.

يرجع أبى من الخارج كأنما هو راجع من «خناقة»، زر طربوشه مفقود، عقدة رباط عنقه غائصة فى ثنية الياقة، جاكتته تنضح بالعرق والتراب، صوته مبحوح كأنه سعل دهراً، لكن عينيه تتألقان بنور ظافر، يستلقى على الكنبة ويقول:

- هتفت حتى ضاع صوتى، نسيت نفسى تماما.. ثم بارتياح عميق تجمعت الدنيا كلها فى ميدان السيدة، سبحانك يا ربى ما أكثر عبادك.

ويجتاح الحارة إحساس غامر بالنصر، ويعتقد كل قلب أن الحرية تدق الأبواب، وتطبق المظاهرات على حيناً لا تريد أن تنتهى.. سعد.. سعد.. يحيا سعد، وأسأل أمى: سيرحل الإنجليز ؟؟؟ فتجيب بيقين: إلى غير رجعة. فى الليل تحتفل حارتنا بعودة الزعيم احتفالاً خاصاً.. تضاء الكلوبات فى هامات الدكاكين وترتفع الأعلام وتدوى الزغاريد] «**حكاية (١٨)**»

حتى يوم وفاة سعد.. صوره نجيب محفوظ من خلال مشاعر طفل لا يدرك بدقة حقيقة ما حوله.. لكنه يشعر بالفرح والحزن.. الفرح الذى يقرأه فى عيون الكبار وتفسره أحاديثهم وتعليقاتهم، والحزن الذى يراه فى دموع الكبار.. ويفهمه ويعيه بحسه المرهف.

[تهمس أمى فى أذنى بنبرة مختنقة:

- سعد زغلول.. البقية فى حياتك

فأهتف من أعماقى:

- سعد!!

وأتراجع إلى حجرتى.. وتتجسد الكآبة فى كل منظر] «**حكاية ٢٣**»

هكذا استطاعت أسرة «نجيب محفوظ» ومعها المجتمع كله أن تجعل القضية الوطنية قضية خاصة فى كل بيت.. قضية يشعر بها الصغار مع الكبار.. هذا فى وقت لم تكن فيه ثمة إذاعة مسموعة أو مرئية.. لم تكن هناك إلا الصحف.. ورغم انتشار الأمية.. إلا أن الاهتمام الوطنى لدى المصريين جعل من كل منهم «وكالة أنباء» تسمع الخبر وتنشره وتناقشه، وتهتم بما يؤثر على أمن الأمة وسلامة المجتمع. وتعيش الذكريات فى قلب الفتى المصرى، الذى علمته التجربة أول دروس الوطنية.

وفى الثلاثية[1] التى انتهى «نجيب محفوظ» من كتابتها فى إبريل (١٩٥٢) يحكى لنا «نجيب محفوظ» قصة أسرة تعيش فى حى الجمالية - حيث ولد «نجيب» وعاش طفولته الأولى - وتعاصر أحداث ثورة الشعب المصرى من أجل الاستقلال، وتؤيد موقف سعد زغلول ورفاقه.. ويشارك أفرادها فى المظاهرات والإضرابات ويستشهد أحد أبنائها..

(١) الثلاثية عمل روائى ضخم، قسمه المؤلف إلى ثلاثة أجزاء، هى: «بين القصرين» و«قصر الشوق» و«السكرية».

لقد انفعل الطفل «نجيب» رغم حداثة سنه بما يدور حوله، وتحفر التجربة فصولها فى قلبه وعقله، ثم تظهر بقوة فى أعماله الفنية.. ومن أهمها الثلاثية التى عبرت فصولها عن روح الشعب المصرى فى العقود الأربعة الأولى من القرن الماضى.

[قال ياسين: ما كنت أتصور أن فى شعبنا هذه الروح المكافحة].

«بين القصرين».

من الجمالية إلى العباسية

فى عام ١٩٢٤ كان على السيد «عبدالعزيز إبراهيم الباشا» أن يدبر مبلغ ألف جنيه مصرى؛ ليشترى بيتاً جديداً لأسرته فى حى العباسية.. وهذا يعنى أنهم سيتركون الجمالية حيث ولد الصبى «نجيب محفوظ»، وقضى ما يزيد عن اثنى عشر عاماً من عمره.

يتأمل «نجيب» المكان حوله.. ميدان بيت القاضى.. شجرة «دقن الباشا».. «حنفية المياه»، «بوابة» «الحارة» «والتكية».. تابع أترابه من الصبية يمرحون أمامه، ثم سأل أمه عن السبب الذى دعا والده إلى بيع هذا البيت وشراء بيت آخر فى العباسية.. ولماذا العباسية بالذات.

ابتسمت الأم وقالت له:

- سيكون بيتنا الجديد على النظام الحديث ينار بالمصابيح الكهربية وليس بلمبة الجاز.. وللبيت حديقة، وتحيط به الحقول والحدائق الواسعة من كل جانب، كما سينقل والدك أوراقك من مدرسة بين القصرين الابتدائية إلى مدرسة جديدة فى حى العباسية، وهناك ستجد زملاء جدداً وأصدقاء..

عاد «نجيب» ينظر إلى أمه وكأنه غير مقتنع.. إنه يحب الجمالية والحسين.. يحب الحوارى والأزقة والزحام.. يحب الدراويش والفتوات.. يحب أصوات الباعة الجائلين ويستمتع بالشجار بين الناس.

عادت أمه تقول:

- لا شك يا بنى أنك لاحظت أن أعيان الجمالية قد هجروها فى السنوات الأخيرة.. فهاهم «بيت المهيلمى» و«بيت السيسى» و«بيت الخربوطلى».. كل هؤلاء تركوا الجمالية وسكن أغلبهم فى العباسية.

واستسلم الفتى الصغير.. فماذا يصنع طفل لم يتجاوز الثانية عشرة أمام قرار فى مثل حجم هذا القرار.

كان حى العباسية الغربية حيث انتقلت أسرة السيد «عبدالعزيز إبراهيم الباشا» والد «نجيب محفوظ»- منطقة تملؤها الخضرة. وبها مجموعة من المنازل الصغيرة المكونة من دور واحد، وفى خلفيته حديقة صغيرة.. وحول هذه البيوت تمتد الحقول حتى نهاية البصر.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

وصل «نجيب» إلى البيت الجديد «٩ شارع رضوان شكرى» وأخذ يتأمله، فوجده يختلف كثيرا عن بيت الجمالية.. صحيح أن البيت مزود بالكهرباء، كما أن المياه تصله عبر الأنابيب «دون السقا والخزان

العلوى». وصحيح أن الحدائق تحيطه من كل مكان.. لكنه يفتقد هذا الزحام الذى يحبه.. ويفتقد الأصدقاء الصغار الذين يشاركونه اللعب.

تلفت «نجيب» حوله يبحث عن المكان الذى تتجمع فيه المظاهرات أو يتعارك فيه الفتوات.. فسأل والده ببراءة:

ألا يهتف أهل العباسية «يحيا سعد»؟؟؟

لم يمض إلا يومين أو ثلاثة حتى استقرت أحوال الأسرة فى مسكنها الجديد.. وعرف «نجيب» أن أوراقه قد قبلت فى «مدرسة خليل أغا الابتدائية».

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

فى الصباح أيقظت الأم ابنها «نجيب» ودعته للاستعداد للخروج..

- إلى أين نذهب اليوم يا أمى؟؟.. هل سنذهب إلى «الأنتيكخانة»؟؟

ضحكت الأم وقالت:

- لا.. بل إلى الحسين.

- صحيح يا أمى سنذهب إلى الحسين.. سنذهب إلى «بيت القاضى» ونزور الجيران.. هل سألعب مع أصدقائى؟؟

لم ينتظر «نجيب» حتى يسمع تعليق أمه على ما قاله، لأنه جرى مسرعاً يستعد لهذه الزيارة التى كان ينتظرها «إلى الحسين».

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

بدأت جولة «نجيب محفوظ» ووالدته بزيارة المشهد الحسينى.. عند الباب خلع الفتى نعليه خاشعاً تملؤه مشاعر الرهبة.. فقرأ الفاتحة ثم اقترب من الضريح فقبله.

أسرع «نجيب» بالخروج.. دس قدميه فى حذائه وخرج إلى الطريق وراح يتطلع حوله.

- هذا هو «دكان حمدان» بائع البسبوسة.. وهذه مدرسة «بين القصرين» التى تعلو سبيل عثمان الأثرى.

تطلع «نجيب» إلى الجهة الغربية حيث الباب الأخضر والقبو المؤدى إلى حارة الدراويش.. وتلفت حوله فرأى دكاكين العطارين، حيث تباع أنواع التوابل والبخور.

ابتسم «نجيب» ابتسامة واسعة وهو يمر من أمام فندق «الكلوب المصرى»، وإلى جواره «سينما الكلوب المصرى»

[بدأت علاقتى بالسينما فى سن مبكرة جداً.. كنت لا أزال طفلا فى الخامسة من عمرى، عندما دخلت سينما «الكلوب المصرى» فى «خان جعفر» المقابل لمسجد سيدنا الحسين، وكانت سينما «الكلوب» من أقدم دور السينما فى مصر، وإلى جوارها لوكاندة وكافيتيريا

يحملان الاسم نفسه. ومنذ اللحظة الأولى عشقت السينما، وواظبت على الذهاب إليها مع الشغالة، حيث كانت أمى ترسلها معى، وتظل ملازمة لى حتى انتهاء العرض، ثم تصحبنى للمنزل، وكانت كلمة «النهاية» على آخر الشريط، من أشق اللحظات على نفسى، فقد كنت أتمنى أن أمضى اليوم كله داخل دار العرض، وتمنيت لو أننى أسكن فى دار عرض سينمائى فلا أخرج منها أبدا، كانت السينما وقتذاك تعرض الأفلام الصامتة، ولا نرى فى دار العرض إلا صوراً متحركة دون أصوات، ومع ذلك كانت متعة مشاهدة فيلم صامت لا تعادلها - عندى - أى متعة أخرى[1]].

من بعيد ظهرت مآذن جامع برقوق وجامع قلاوون.. أمسكت الأم بيد صغيرها.. فهى تخشى عليه من التعثر أثناء السير أو أن يضل طريقه.. لكن «نجيب» تمرد وجذب يده، ورفض أن يتعلق بكفها فهو لم يعد بعد صغيرا.. لقد تجاوز الثانية عشرة..

. . . . . .

. . . . . .

توقف «نجيب» عن مصاحبة أمه فى زيارتها اليومية للحسين، ولكنه لم يتوقف عن الذهاب إلى هذا الحى الذى يحبه.. ويعشق حواريه كان يذهب مع أصدقاءه.

. . . . . .

. . . . . .

---

(١) من حديث لنجيب محفوظ فى كتاب «نجيب محفوظ» لرجاء النقاش، ص١١٣.

مع الانتقال إلى العباسية افتقد «نجيب محفوظ» بعض مظاهر التسلية والسعادة، التى اعتاد عليها فى «الجمالية» مثل متابعة شاعر الربابة.

[وكنت أذهب أحيانا للاستماع إلى شاعر الربابة، وأقف على باب المقهى استمع إلى حكايات، لا أدرك معناها بسبب صغر سنى فى ذلك الوقت، لكنى تأثرت بها وظهر هذا التأثير فى بعض أعمالى التى تتناول الحارة الشعبية مثل «زقاق المدق».. كان الشاعر يغنى فى مقهى «بخان جعفر» ما بين ميدان بيت «القاضى» و«الحسين». ويصطف الجمهور على الكراسى، وكأنهم فى دار سينما يستمعون للشاعر، وإذا حكى قصة «أبوزيد الهلالى» ينقسم الجمهور إلى فريقين: الأول يؤيد «أبا زيد» ويؤيد الثانى «دياب» مثل جماهير كرة القدم[1]].

هكذا حمل الفتى الصغير «نجيب» فى عقله رؤى ومواقف ربطته بهذا العالم الجميل - عالم الحارة المصرية - بكل ما فيها من مظاهر ومشاعر.. كل ما فيها من «مصرية» أصيلة تتجلى فى الموقف الوطنى والموقف الاجتماعى.

حتى عندما انتقل إلى حى آخر.. حى أكثر اقترابا من العصرية، وأكثر بعدا عن النمط التقليدى، كانت أحلامه تذهب دائما إلى هناك.. إلى هذه الأصالة والعراقة التى ظهرت فى كل أعماله، ابتداء من«**عبث الأقدار**» (١٩٣٧)، وحتى أحلامه التى مازلنا نقرؤها بين الحين والحين فى مجلة «**نصف الدنيا**».

(١) من حديث نجيب محفوظ لرجاء النقاش فى كتابه نجيب محفوظ، ص٢٥/ ٢٦.

ظلت حياة المصريين البسطاء فى أصغر تجمعاتهم - الحارة - بابا يدخل منه «نجيب محفوظ»، ليطرح أفكاره الخاصة ووجهة نظره فى الحياة ببساطة وواقعية منقطعة النظير..

لقد استطاع أن يسجل لنا تفاصيل الحياة اليومية للطبقة الكادحة والفقيرة فى بدايات القرن الماضى «العشرين»، بل إنه سجل لنا عالم بعض الحرف والمهن التى اندثرت.. مثل «حارس حنفية المياه» «السقا» «بائع الكراملة» «شاعر الربابة» «العربجى» «الدلالة».. ذلك كله دون أن يكون التاريخ أو التسجيل هو هدفه أو وظيفته.. فقط.. كان «نجيب محفوظ» كاتباً صادقا، اتخذ من الحارة مسرحًا لأعماله القصصية والروائية، التى وصلت به إلى مستوى العالمية.

من كـاتبة
إلى قارىء

[قد لا يصدق أحد أننى كنت فى يوم من الأيام «كابتن» فى كرة القدم.. وأن عشقى لها استمر حوالى عشر سنوات متصلة فى أثناء دراستى بالمرحلتين الابتدائية والثانوية.. ولم يأخذنى منها سوى الأدب[1]].

هذا هو ما قاله «نجيب محفوظ» عن نفسه.. اعتراف بأنه كان عاشقا لهذه الرياضة التى استحوذت على كل طاقته الجسمانية والذهنية فى فترة الدراسة الابتدائية والثانوية.

حدث هذا فى «العباسية» بعد انتقال أسرته للإقامة بأحد دورها.. فكيف بدأ التعارف الحقيقى بين الفتى الصغير وبين هذه الرياضة..

بدأ هذا التعارف عندما شاهد «نجيب» مباراة بين فريق مصرى وآخر إنجليزى، وكان الفوز فيها للمصريين.. هزت الفتى النتيجة.. فقد كان يعتقد أن الإنجليز لابد وأن يهزموا المصريين، لأنهم دائما لا ينهزمون.. ورأى الصغير فى هذه الرياضة فرصة كى يحقق أمنية عزيزة على قلبه وهى «أن يهزم الإنجليز..» فطلب من والده أن يشترى له كرة.. لكن الأب كان حريصا على أن يتفرغ ابنه لدراسته

(١) رجاء النقاش «نجيب محفوظ» ص٣٢٢.

واستذكاره.. وزاداد إلحاح الفتى.. ولبى الأب طلبه.. واشترى له كرة..

وفى فناء المنزل بدأ «نجيب» يمارس هذه الرياضة لأول مرة.. وبدأ تدريباته مقلدا ما شاهده من المحترفين فى المباراة، حتى شعر بعد فترة أنه أصبح يتقن «المهارات الأساسية».. وفى مدرسة «خليل أغا الابتدائية» انضم «نجيب محفوظ» إلى فريق الأشبال ولعب فى مركز «الجناح الأيسر».. «لفت وينج» ورغم أن براعته فى استعمال قدمه اليسرى كانت محدودة، إلا أنه كان «هداف الفريق».. وكلما اهتزت شبكة الفريق المنافس.. تعالت هتافات المشجعين هاتفه باسم «نجيب محفوظ».

وينتقل التلميذ «نجيب محفوظ» من المدرسة الابتدائية ليصبح الطالب «نجيب محفوظ» فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية.. وينتقل من مركز «الجناح الأيسر» ليصبح «قلب دفاع».. ويتفوق على نفسه فى كل يوم.. ويصبح نجم المباريات المتعاقبة ويتابعه هواة هذه اللعبة الشعبية، ويتنبأ له الجميع بأن يصبح لاعبا مشهورا، وبأن أحد الأندية الكبرى سوف تستقطبه كى يلعب مع فريقها، تمهيدا للانضمام إلى المنتخب الوطنى للمشاركة فى «الأوليمبياد». فى الوقت نفسه يتابع «نجيب» المباريات الكبرى التى تقام فى الأندية المختلفة ويزداد عشقه لأداء «حسين حجازى» - أشهر اللاعبين المصريين فى هذه الفترة واللاعب «محمود مختار التتش» واللاعب «على الحسنى» وحارس المرمى «مرعى» وجميل الزبير» و«سيد أباظة».

وعرفت شوارع العباسية فريق «قلب الأسد»، كما عرفت كابتن الفريق «نجيب محفوظ».

هكذا أحب «نجيب محفوظ» كرة القدم وعرف بين زملائه فى المدرسة وأصدقائه فى الحى بأنه «الكابتن».

[كان محاورا ومداورا ومناورا كرويا لو استمر لنافس حسين حجازى والتتش ومن بعدهما عبدالكريم صقر.. وأنا لم أر لاعبا فى سرعة نجيب محفوظ فى الجرى.. كان أشبه بالصاروخ المنطلق].

هذه شهادة أحد أصدقاء نجيب محفوظ، وهو د. أدهم رجب التى ذكرها للكاتب «جمال الغيطانى» فى كتابه عن «نجيب محفوظ».

هكذا كانت كرة القدم هى هواية «نجيب محفوظ» الأولى.. والوحيدة، وانحصرت اهتماماته ما بين التفوق الدراسى ولعب كرة القدم.. لهذا كان أصدقاؤه من لاعبى كرة القدم..

إذًا فكيف دخل «نجيب» إلى عالم القراءة الذى أسلمه إلى عالم الكتابة.. حدث هذا بالصدفة.. فى حكاية كتبها لنا ضمن «حكايات حارتنا»، وكان بطلها الحقيقى اسمه «يحيى صقر»، وهو قريب واحد من أشهر لاعبى الكرة المصرية فى جيله هو «عبد الكريم صقر».. ولنترك نجيب محفوظ يحكى لنا الحكاية.. **رقم (٢٠)**

[يحيى مدكور أمهر لاعب كرة فى مدرستنا، وصديقى المفضل فى المدرسة الابتدائية.

أجده يوما يقرأ كتابا فى الفسحة، فأسأله:

- ما هذا؟.

- ابن جونسون.. الحلقة الأولى من سلسلة بوليسية جديدة.

ويعيرنى الكتاب بعد فراغه فأقرأه بسعادة لم أجد مثلها من قبل.. وأواظب على قراءة السلسلة، ثم انتقل من سلسلة إلى أخرى، ومن كاتب إلى آخر، ثم أدمن القراءة.

وأصير مع الزمن بطلا من أبطال القراءة، أما صديقى فيهجرها سريعا ثم يتربع على عرش الكرة].

كان هذا هو أول اتصال بين «نجيب محفوظ» وبين عالم الإبداع.. فهو لم يقرأ قبل كتاب «ابن جونسون» أى كتاب غير مدرسى، ولم يكن فى البيت أى كتب غير نسخة من «حديث عيسى بن هشام» «لإبراهيم المويلحى»، وكانت النسخة مهداة من المؤلف الذى كان صديقا للسيد «إبراهيم الباشا» والد «نجيب محفوظ».

استمتع الفتى بهذا الكتاب وتساءل فى نفسه.. إذا كان هذا هو «ابن جونسون».. فأين «جونسون» نفسه.. وأخذ يبحث عن بقية السلسلة.. وقرأها جميعا بسعادة وهو يعايش الأحداث وينفعل بها.. وتنتهى رواية لتبدأ أخرى.. روايات بوليسية وأخرى تاريخية.. كان الصغير يختنق بالدموع فى المواقف الحزينة، ويبتسم بسعادة مع المواقف المرحة.

توقف «نجيب محفوظ» قليلا وقال فى نفسه:

- هل أستطيع أن أكتب روايات مشابهة لهذه.. لم لا؟

وبدأ يكتب..

يكتب الروايات نفسها التى قرأها.. يضيف إليها بعض المواقف من حياته أو حياة المحيطين به، ثم يكتب على الغلاف «تأليف نجيب محفوظ» ولا ينسى أن يكتب اسم ناشر وهمى.

.....

.....

.....

من هذه السن الصغيرة - سن الخامسة عشرة - بدأت العلاقة الحميمة بين «نجيب محفوظ» وعالم الكتاب.. قراءة وكتابة.

وتمضى السنوات تاركة علامات النضج على عمره وجسمه فتزداد علاقته بالقراءة نضجا.. فبعد الروايات البوليسية والتاريخية، بدأ يقرأ للكتاب المجددين أمثال «مصطفى لطفى المنفلوطى» و«طه حسين» و«عباس محمود العقاد» و«سلامة موسى». ثم بدأ يبحث فى الإنتاج العالمى فقرأ ما وجده مترجما، ثم قرأ البعض الآخر فى لغته الإنجليزية التى كان يجيدها.

ويذكر «نجيب محفوظ» أنه قرأ لمجموعة كبيرة من الكتاب العالميين، ويعتز ببعض الأعمال وبعض الكتاب مثل «الحرب والسلام» «لتولستوى» و«الجريمة والعقاب» «لدستويفسكى» و«قصص قصيرة»

«لتشيكوف» و«موباسان» و«كافكا» و«بروست» و«جويس».. ولم تفته بعض الكلاسيكيات «لشكسبير» الذى أحبه كثيرا كما أحب «يوجين أونيل» و«إبسن» و«سترندبرج».. وتوقف طويلا عند طاغور وحافظ الشيرازى.

ويعود «نجيب محفوظ» إلى جذوره، يفتش فيها عن سحر اللغة وجمال المعانى، فيقرأ «الجاحظ» و«أبو حيان التوحيدى»، إلى جانب عيون الشعر العربى القديم والمعاصر.

رحلة وطويلة وعريضة بدأها نجيب محفوظ من «ابن جونسون»، وظل مسافرا فيها بقية سنوات حياته.. فقد أصبحت القراءة هى عشقه الأول وحبه الكبير، يجد فيها كل ما يبحث عنه فى الماضى والحاضر.. وأحيانا المستقبل.

بحث «نجيب محفوظ» عن القصة والرواية فى التراث العربى فوجدها قليلة نادرة.. وجد من الجيل السابق له «عودة الروح» «لتوفيق الحكيم» و«سارة» «للعقاد» و«الأيام» «لطه حسين».. استوقفته «الأيام».. تأمل التجربة.. أحب أن يحاكيها فأمسك القلم.. وكتب.. وكتب.. وعلى غلاف الكراسة كتب «الأعوام» بقلم «نجيب محفوظ»

هكذا عرف هذا الشاب الصغير طريقه وبدأ يستعد له.. عرف أن الكتابة هى طريقه، وأن القراءة هى الاستعداد الحقيقى لهذا الطريق..

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

كانت سنوات الدراسة الثانوية فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية هى سنوات التكوين العقلى والفكرى «لنجيب محفوظ» - كما هى لكل الشباب - ففى هذا السن يبدأ الإنسان فى اكتشاف مواهبه وطاقاته وميوله واستعداداته، مع الأخذ فى الاعتبار أنه لم يكن هناك - فى هذا الزمان - صراع على مجاميع الثانوية العامة ولا دروس خصوصية.. وكان عدد الطلاب فى الفصل لا يزيد عن خمسة عشر.. فكانت العلاقة بين المدرس وتلاميذه علاقة مباشرة، يعرفهم جميعا بأسمائهم ويعرف قدرات كل منهم وإمكاناته العلمية، وعرف عن «نجيب محفوظ» تفوقه فى مادة اللغة العربية ومادة الرياضيات مع المواد العلمية.. وتنبأ الجميع لهذا الشاب بالتفوق فى دراسة الطب أو الهندسة.

لكن.. ماذا كان «نجيب محفوظ» يتمنى أن يدرس.. الطب؟ أم الهندسة؟؟ أم..؟؟.. لقد قرأ الشاب الطموح كثيرا.. قرأ كل ما طالته يديه من أوراق.. وبدأ يتابع إنتاج أعلام الكتابة والصحافة فى مصر.. لم يجد أحدا منهم يكتب القصة.. إلا قليلا.. كلهم يكتبون المقالات.. والمقالات تعنى أفكارا.. وبمرور الوقت شعر نجيب محفوظ برغبة جامحة فى دراسة الأفكار.. فأين يدرس هذه الأفكار؟؟ فى قسم الفلسفة بكلية الآداب..

لقد حركت القراءة فى عقل «نجيب» أسئلة كثيرة وكبيرة.. لم يكن لها من إجابة إلا فى دراسة الفلسفة.

وأعلنها الشاب الطموح.. سأدرس الفلسفة.. فلا طب.. ولا هندسة.

كان «نجيب محفوظ» يسير فى حياته دون مرشد أو مساعد له يستشيره أو يحتكم لخبرته.. وكان قراره باختيار الفلسفة موضوعا للدراسة قرارا خطيرا لاقى معارضة من كل الأطراف.. الأستاذ بشارة باغوص - أحد معلميه فى المدرسة الثانوية يسأله.. لماذا تؤذى نفسك؟.. ما الذى تفعله بنفسك؟؟

أما والده فقد غضب غضبا شديدا.

- يا بنى.. التحق بكلية الحقوق، وتصبح مثل ابن عمك وكيلا للنيابة تمشى ووراءك عسكرى[1].

كان الأب يتمنى أن يصبح ولده صاحب وظيفة مرموقة فى المجتمع تضفى على صاحبها - وبالتالى على أهله - وجاهة وهيبة.. كان يتمناه قاضيا أو طبيبا أو مهندسا أو محاميا..

لكن الابن يريد أن يدرس الفلسفة.. لماذا؟؟؟

«ليعرف سر الوجود».. هكذا كان «نجيب محفوظ» يفكر..

ولأن الطالب «نجيب» كان محبا للقراءة والكتابة، فقد تأثر بشدة أثناء المرحلة الثانوية بالشيخ «عجاج» أستاذ اللغة العربية بمدرسة فؤاد

(١) من كتاب رجاء النقاش على لسان نجيب محفوظ ص ٢٠.

الأول الثانوية. ولم يكن الأستاذ مجرد مدرس يجيد توصيل مادته لتلاميذه، بل كان [معلما للوطنية وكان أحد الأسباب المباشرة التى جعلتنا نحن تلاميذ تلك المدرسة ننفعل بثورة ١٩ ونعشق زعيمها سعد زغلول] «**كما جاء فى كتاب رجاء النقاش**».

لم يكن «الشيخ عجاج» معلما تقليديا يدخل إلى حصته فيقول ما هو موجود داخل المقرر الرسمى، ويشرح منه ما غمض ثم يجيب عن أسئلة الطلبة.. لم يكن واحدا من هؤلاء.. بل كان معلما خلاقا مبدعا، يستشهد بنصوص من عيون الأدب.. ويلفت نظر تلاميذه إلى هذه الذخائر.

والتقطت «نجيب محفوظ» الخيط وبحث عن هذه الكتب واقتناها.. وبدأ يتميز عن زملائه خاصة فى مادة الإنشاء «التعبير».. وازداد التلميذ تعلقا بأستاذه، وضاعف الأستاذ اهتمامه وحبه لتلميذه..

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

وسط هذا التحول الكبير فى حياته نسى «نجيب محفوظ» مباريات «كرة القدم».. نسيها تماما وتفرغ لمباريات «القلم» يقرأ ما خطته أقلام الآخرين.. تستوقفه الأفكار الفلسفية والأفكار الجديدة.. ويمسك قلمه الصغير ويبدأ معه رحلة طويلة من الكتابة..

وعلى الغلاف يكتب دائما «بقلم نجيب محفوظ».